المسرح الرّوسي في عصر النّهضة

المسرح الروسي في عصر النهضة

انطلق عصر النهضة الاوروبي في القرن 15 ميلادي من مسارح إيطاليا فإسبانيا فإنجلترا، إلا أن المسرح الروسي ظل متأخرا عن هذا الركب حتى القرنين 19، 20 ميلادي، وكان للمرحلة الأولى وهي مرحلة التأسيس والتصميم الفضل في مزاحمته لكتاب الأدب الدرامي العالمي، رغم استعانته في الكثير من نتاجه بالنموذجين الإيطالي والفرنسي على وجه الخصوص، إضافة الى بعض المساعدات الالمانية.

برزت بدايات المسرح الروسي في شكل احتفالات شعبية في الأعياد الدينية الوثنية، وكان الناس يحتفلون بواسم الانقلاب الشتوي، والانقلاب الصيفي. كانت تلك العروض مليئة بالألعاب والرقص والعزف والغناء.. يطلق على الربيع تسمية "ياريلا" المجسدة بشيخ يضع على رأسه طرطورا من الورق مزين بالشرائط والألوان ويحمل في يده دفا، أو في شخص شاب متورد الخدين، أو في هيئة فتاة طويلة القامة تزين رأسها بالورد وبيدها فص أخضر.

على الرغم من التأثير الأوروبي، فإن المسرح الروسي عرف تطورا نسبيا مختلفا عن الأشكال الجمالية في فرنسا في القرن التاسع عشر. لا يمكن النظر إلى الإبداع الفني والأدبي لروسيا الامبراطورية منفصلا عن السياق السياسي في هذا العصر الذي يلوح بالاضطرابات. فالدفاع عن الثقافة الروسية من جهة، والرغبة في تمثيل مجتمع يسوده الجور والظلم وخاضع للرقابة من جهة أخرى، شجع كتاب الدراما على البحث عن مختلف الأشكال التمثيلية للواقع على المسرح.

من الاحتكار الامبراطوري إلى المسارح الخاصة:

لم يظهر المسرح الروسي إلا مع نهاية القرن السابع عشر في عهد القيصر "ألكسي ميخايلوفيتش"، حيث لاقى ظهوره معارضة شديدة من طرف الكنيسة الأرثوذكسية، فهو قبل كل شيء ترفيه مخصص للطبقات العليا في المجتمع الامبراطوري، حين طرح أحد النبلاء فكرة إقامة مسرح على الطراز الأوروبي لأغراض التسلية، ثم أصبح موضة لدى النبلاء، فأقاموا مسارح خاصة في قصورهم، حتى أن شكل الأوبرا صمم خصيصا ليناسب ذوق هذه الطبقة.

لم يكن هذا المسرح لينفتح إلا تدريجيا على الطبقات الأكثر شعبية. كان كل عرض مسرحي يخضع ليقظة الشرطة، قليل من الكتاب فقط استطاعوا وبصعوبة الإفلات من الرقابة بعرض أعمال مسرحية نقدية (هجائية Satirique)، لذلك أصبح بعض الكتاب ضد الاحتكار

الإمبراطوري للمسرح حتى عام 1882 من بين هؤلاء "الكسندر أوستروفسكي" *Alexandre Ostrovski* الكاتب ومدير مسرح الذي اقترح إنشاء مسرح وطني شعبي متاح للجميع.

في بداية القرن التاسع عشر سمح فقط للمسرحيات الهزلية الخفيفة Vaudevilles، والميلودراما Mélodrames للعرض في المسارح العامة. وبالرغم من زوال الاحتكار الامبراطوري وفتح المجال للمسرح الخاص إلا أن ذلك لم يأت بجديد على مستوى الشكل الدرامي، حيث غلبت المصالح التجارية على المتطلبات الفنية.

المسرح الهاوي:

عرفت مدينة موسكو وضواحيها نوعا من الممارسة المسرحية الهاوية في المنازل أولا، ثم في نواد خاصة، كما عرف القرن التاسع عشر اختلافا متزايدا بين عاصمتين الامبرطوريتين، ففي مدينة سان بترسبورغ حيث يقطن النبلاء والعسكر والموظفون السامون، كانت العروض المسرحية المقدمة من طرف المسارح المؤسساتية تمتع هؤلاء المشاهدين بما يليق بمقامهم. أما موسكو فقد عرفت بنفوذ "الأنتلجنسيا" (المثقفين) المكونة أساسا من البرجوازيين المتعلمين والخيرين *Philanthropes* التواقين إلى كسر الأعراف الجمالية، والأخلاقية، والسياسية التي تعيق الخلق الفني، وتشل الإبداع. أما الأثرياء من التجار فقد لعبوا دور الراعي متمثلين في ذلك ب: "ماسين" *Mécène* الروماني في دعم الأعمال المسرحية في النوادي الهاوية.

- **مسرح العبيد :**

ظهر مسرح العبيد أو الخدم Théâtre de serfs العديد من قصور الإقطاعيين والأثرياء يمثله ويقيم مناظره ويصمم ديكوراته وأزياءه، الخدم العبيد. وهذا المسرح ثمرة الإقطاعية الروسية التي كانت سائدة في المجتمع قبل تحرير 23 مليون من العبيد عام 1861م بقرار قيصري. ويشير تاريخ المسرح العالمي، إلى أن العبيد هم من كان يؤلفون الدراما والموسيقى المصاحبة للعرض.

والغريب أن هذه الفرق كانت تقدم عروضا من الأدب الدرامي العالمي: "كالدرون" *Calderón*، "شكسبير" *Shakespeare* و"شيللر" *Schiller* وبعض العروض الغنائية والاستعراضية الراقصة، وكان الممثلون العبيد يتعرضون للضرب المبرح من سيدهم حين يخطئون في الأداء التمثيلي. أشهر هؤلاء الممثلين "ميخائيل شيشبكين " *Mikhail Chichepkine*

الذي تم شراؤه ليقوم بالتمثيل على مسرح "مالي" Maly ومعناه المسرح الصغير، وظل يمثل حتى وفاته عام 1863 . وهو أول من طور بالكتابة رؤية عن تقنية الممثل، وكان لمذكراته تأثير معتبر على كتاب كبار على غرار "كونستنتين ستانسلافسكي" *Constantin Stanislavski* و" نيكولا غوغول" *Nicolas Gogol* فيما يتعلق بالتمثيل الواقعي الذي طوره العبيد في كتابة المسرحيات.

- **مرحلة التأسيس:**

طغى على الروس إحساس عارم بضرورة اللحاق بنهضة المسرح بعد دول أوروبا، وكان لا بد من بدء مرحلة التأسيس، حيث أتى بناء المسارح على رأس الأولويات؛ فافتتح في شارع "بيتروفكا" بموسكو مسرح "بيتروفسكي"، ثم مدرسة لفنون التمثيل المسرحي عام 1807 وفي العام التالي 1808 أنشئ مسرح خشبي بتصميم المعماري الروسي "كارل إيفانوفتش".

شهد عام 1824 بناء المعماري أوسيب إيفانفيتش للمسرح الصغير. وفي عام 1880م نشأ مسرح "بوشكين" *Pouchkine* بجوار تمثاله في شارع "تفيرسكايا"، وافتتح مسرح "فيودور ادامافيتش" أيضاً عام 1882 في موسكو ليقدم الكوميديا، الفورفيل، الميلودراما، ويقدم كبار الكلاسيكيات للمؤلفين الروس والفرنسيين. وفي نفس العام افتتح المسرح الخيالي وتبعه إنشاء مسرح "إسكوموروا" ليقدم كلاسيكيات المسرح الروسي، (سلطان الظلام) La Puissance des ténèbres للكاتب الروسي ليو تولستوي *Léon Tolstoï* أول عروضه.

- **أبو المسرح:**

أما بالنسبة للتمثيل باللغة الروسية الأم، فقد بدأها الروسي "فيودور غريغوريفيتش فالكوف" *Fidor valcov* أول المؤسسين لمسرح قومي روسي، ويسمى أبا المسرح الروسي. وسجل التاريخ المسرحي أيضاً اسم إيفان إيفانفييتش ديمتريفسكي *Ivan Demetrovski* كأول ممثل، ليصبح عضواً في الأكاديمية العلمية الروسية بعد افتتاحه المسرح الكبير "البالشوي" théâtre Bolchoï.

يمكن اعتبار تاريخ مسرح "البالشوي" من روايات المغامرات، ففي عام 1776 شيّد الأمير "بيوتر أوراساف" أول مسرح روسي في موسكو. إلا أن حريقاً شب في المبنى قبل افتتاحه، ثم شيد من جديد. وفي عام 1805 تعرّض للحريق مجدداً. في عام 1956، وبعد أربعة عقود من ثورة أكتوبر، سمحت الحكومة السوفييتية لأول مرة بسفر فرق مسرح "البالشوي" في جولة فنية لدول أوروبا البرجوازية.

- **عصر الدراما:**

بعد تأسيس المسارح في أغلب المدن والقرى الروسية، جاء دور أدب الدراما، وكان من الطبيعي أن تتقدم الدراما الروسية بحكم احتكاكها بالدراما الأوروبية التي سبقتها. بدأت الدراما الرومانتيكية الروسية طريقاً يختلف عن طريق الرومانتيكية الغربية، مختارة عناصر الفولكلور الشعبي بالشكل والمضمون، متأثرة بالفلاحين الروس وحياتهم.

كاتب الدراما "ألكسندر سيرغييفتش غريبويادوف"*Alexandre Griboïedov* ، هو من فجر الرومانتيكية الروسية بكوميدياته ، تبعه أعظم الرومانتيكيين الروس من أمثال "ألكسندر بوشكين" *Alexandre Pouchkine* المتخصص في التعمق داخل الشخصية المسرحية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه يعزى إلى القيصرة دخول دراما "شكسبير"إلى روسيا عندما أعدت دراما الكوميدية الشهيرة (سيدات وندسور المرحات) The Merry Wives of Windsor إلى مسرحية روسية حملت اسم (سلة الملابس القذرة). وهي السلة التي كان يتخفى فيها بطل المسرحية، أحد شخصيات شكسبير الباهرة، وتظل دراما "بوشكين" التاريخية (بوريس غودونوف) *Boris Godounov* حتى هذه اللحظة شاهدا على القيمة الدرامية التي تتمركز في تأنيب الضمير لدى الإنسان الحي ليعيش بقية حياته مؤرقا تائها.

أما في الأدب الواقعي السيكولوجي في الدراما الروسية فقد فجر "ألكسندر نيكولايوفتش أوستروفسكي" *Alexandre Ostrovski* الأدب الواقعي، حيث كتب خمسين مسرحية في ثلاثين عاما من حياته تحمل شخصياتها العلاقات النفسية بالدرجة الأولى، مثل (المفلس) (لا تجلس في زلاجة غيرك) Ne t'assieds point dans le traîneau d'autrui (مع نفسي اصطلح) Entre soi, on s'arrange toujours (الفقر ليس عيبا) Pauvreté n'est pas vice...حيث يعرّي طبقة التجار وعالمهم الخيالي أمام الجماهير، في واقعية جريئة وحوارات جديدة.

وأما الأديبان " أنطون تشيخوف" *Anton Tchekhov* و"ماكسيم غوركي" Maxime Gorki فقد أغنيا المسرح الواقعي بتحف فاقت مسرحيات "أوستروفسكي" دقة وموضوعية. فالأول عالج وسط الكتاب والممثلين في (النورس) La Mouette والمدينة الناعمة في (الأخوات الثلاثة) Les Trois Sœurs ، وانحطاط الأرستقراطية في (العم فانيا) Oncle Vania. والثاني تعرض لمشكلة ضيق المدينة في (الحرفيين)، وحياة المجتمع السفلي في (أحياء البؤساء) Les bas-fonds ، وعالم الفنانين والمثقفين في (المصطافون) Les Estivants ، و(أطفال الشمس) Les Enfants du Soleil.